قَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ: "نَحْنُ لَا نُسَلِّمُ أَنَّ إِمْكَانَ الْحَوَادِثِ لَا بِدَايَةَ لَهُ، لَكِنْ نَقُولُ، إِمْكَانُ الْحَوَادِثِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مَسْبُوقَةً بِالْعَدَمِ لَا بِدَايَةَ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَوَادِثَ عِنْدَنَا تَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ قَدِيمَةَ النَّوْعِ، بَلْ يَجِبُ حُدُوثُ نَوْعِهَا وَيَمْتَنِعُ قِدَمُ نَوْعِهَا، لَكِنْ لَا يَجِبُ الْحُدُوثُ فِي وَقْتٍ بِعَيْنِهِ، فَإِمْكَانُ الْحَوَادِثِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مَسْبُوقَةً بِالْعَدَمِ لَا أَوَّلَ لَهُ، بِخِلَافِ جِنْسِ الْحَوَادِثِ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَبْ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ ذَلِكَ، لَكِنْ يُقَالُ: إِمْكَانُ جِنْسِ الْحَوَادِثِ عِنْدَكُمْ لَهُ بِدَايَةٌ، فَإِنَّهُ صَارَ جِنْسُ الْحُدُوثِ عِنْدَكُمْ مُمْكِنًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا، وَلَيْسَ لِهَذَا الْإِمْكَانِ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ، بَلْ مَا مِنْ وَقْتٍ يُفْرَضُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ قَبْلَهُ، فَيَلْزَمُ دَوَامُ الْإِمْكَانِ، وَإِلَّا لَزِمَ انْقِلَابُ الْجِنْسِ مِنَ الِامْتِنَاعِ إِلَى الْإِمْكَانِ مِنْ غَيْرِ حُدُوثِ شَيْءٍ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ انْقِلَابَ حَقِيقَةِ جِنْسِ الْحُدُوثِ أَوْ جِنْسِ الْحَوَادِثِ، أَوْ جِنْسِ الْفِعْلِ، أَوْ جِنْسِ الْأَحْدَاثِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ هَذَا مِنَ الْعِبَارَاتِ – مِنَ الِامْتِنَاعِ إِلَى الْإِمْكَانِ، هُوَ يُصَيِّرُ ذَلِكَ مُمْكِنًا جَائِزًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ تَجَدُّدٍ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ.

وَهُوَ أَيْضًا انْقِلَابُ الْجِنْسِ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذَّاتِيِّ إِلَى الْإِمْكَانِ الذَّاتِيِّ، فَإِنَّ ذَاتَ جِنْسِ الْحَوَادِثِ عِنْدَهُمْ تَصِيرُ مُمْكِنَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُمْتَنِعَةً، وَهَذَا الِانْقِلَابُ لَا يَخْتَصُّ بِوَقْتٍ مُعَيَّنٍ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدَّرُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ قَبْلَهُ، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ هَذَا الِانْقِلَابُ مُمْكِنًا، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْمُمْتَنِعُ مُمْكِنًا! وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الِامْتِنَاعِ مِنْ قَوْلِنَا: لَمْ يَزَلِ الْحَادِثُ مُمْكِنًا، فَقَدْ لَزِمَهُمْ فِيمَا فَرُّوا إِلَيْهِ أَبْلَغُ مِمَّا لَزِمَهُمْ فِيمَا فَرُّوا مِنْهُ! فَإِنَّهُ يُعْقَلُ كَوْنُ الْحَادِثِ مُمْكِنًا، وَيُعْقَلُ أَنَّ هَذَا الْإِمْكَانَ لَمْ يَزَلْ، وَأَمَّا كَوْنُ الْمُمْتَنِعِ مُمْكِنًا فَهُوَ مُمْتَنِعٌ فِي نَفْسِهِ، فَكَيْفَ إِذَا قِيلَ: لَمْ يَزَلْ إِمْكَانُ هَذَا الْمُمْتَنِعِ؟!"[١].

---

(١) ما بين علامتي التنصيص من كلام شيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية (١/ ١٥٦-١٦٠) بتصرف يسير.

وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ

أي مبسوط في موضعه في كتب الكلام والفلسفة، ولكن أحيانا قد يضطر السني إلى أن يتكلم بلغة القوم؛ ليعلمهم أنه يفهم ما يتبجحون به من الكلمات والألفاظ(٢).

والخلاصة: أن هذا الموضوع يدور حول هذه المخلوقات، نحن جيل وقبلنا جيل وقبل وقبل ... إلى آدم بالنسبة لنا نحن البشر، ولكن الكلام على المخلوقات ككل، من جن وإنس وملائكة وحيوانات .. الخ، هل كان قبل هذا العالم الذي نحن جزء منه عالم آخر؟ وهل كان قبل ذلك العالم علم آخر؟ والله يفني عالما ويأتي بعالم آخر كما سيفني هذا العالم ويأتي بالدار الآخرة؟

هذا الموضوع مرتبط بصفة من صفات الله، وهي دوام فعله، فإنه سبحانه لم يزل حيا فيعني ذلك أنه لم يزل فاعلا، وهذا يعني أن المفعولات في الزمان الماضي لا تحصى كثرة، ولا بداية لها ولا نهاية، وهذا كما نقول في المستقبل، ستأتي أمور تقضي على هذا الكون، وتقوم القيامة، ويأتي عالم آخر، وينقسم الناس إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، فالفريق الذي في الجنة لم يزالوا ولن يزالوا إلى ما لا نهاية، ولم تزل الحوادث؛ حيث يحدث الله

(٢) أي وأن رده لذلك لم يكن من باب من جهل شيئا عاداه.

لهم من النعيم أنواعا من المخلوقات التي يتمتعون بها من الأطعمة والأشربة ونحو ذلك، فيحدث الله لهم من ذلك إلى ما لا نهاية.

فهل يصح أن يكون فيما مضى من الزمن مثل هذه الصورة؟[٣].

أهل الكلام يقولون: لا.

وأهل السنة يقولون: لا مانع من ذلك، فلم يزل الله فعالا لما يريد، ولكن لا يلزم أن يكون هناك شيء معين قديم مع الله، فنحن نقول مخلوقات متعاقبة، بعضها بعد بعض، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] فالعرش قبل السماوات.

فهذا الكلام الفلسفي هنا يدور حول قضية الحوادث، ويقصدون بالحوادث: الموجودات.

فالكلام على تسلسل الحوادث.

---

(٣) أي: حوادث لا أول لها.

وسيقسم الكلام هنا إلى ثلاثة أقسام: تسلسل في الفاعلين، وتسلسل في المفعولات، وتسلسل في الفعل القائم بذات الله عز وجل، فأما الفعل القائم بذات الله فيجب اعتقاد أنه لا بداية له وأنه لم يزل يفعل[٤]، وأما المفعولات فنعتقد أنه لم يزل يخلقها ولكن لا يوجد مخلوق مع الله مطلقا، بل كل له أجل، يبدأ ثم ينتهي، ويجيء بعده مخلوق آخر وهكذا[٥].

وأما التسلسل في الفاعلين فهذا يجب القول بأنه لا يجوز[٦].

---

(٤) "وهذا الموضع للناس فيه أقوال فإن جمهور أهل السنة يقولون لم يزل الله خالقا فاعلا كما قال الامام احمد لم يزل الله عالما متكلما غفورا بل يقولون لم يزل يفعل إما بناء على أن الفعل قديم وإن كان المفعول محدثا أو بناء على قيام الأفعال المتعاقبة بالفاعل" درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٦٨).

(٥) "وعلى هذا فكل ما سوى الرب حادث كائن بعد أن لم يكن، وهو سبحانه المختص بالقدم والأزلية، فليس في مفعولاته قديم، وإن قدر أنه لم يزل فاعلا، وليس معه شيء قديم بقدمه، بل ليس في المفعولات قديم البتة، بل لا قديم إلا هو سبحانه، وهو وحده الخالق لكل ما سواه، وكل ما سواه مخلوق كما قال تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [الرعد: ١٦] [الزمر: ٦٢]" درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٢٧٢).

(٦) "وأما التسلسل في الفاعلين والعلل الفاعلة ونحو ذلك فهذا ممتنع بلا ريب". درء تعارض العقل والنقل (٣/ ١٤٤)، بل امتناعه "متفَق عليه بين العلماء، معلوم بضرورة العقل بعد التصور التام، وبالنظر والاستدلال أيضًا" شرح الأصبهانية ط-اخرى (ص: ١٤٨) منهاج السنة النبوية (١/ ٤٣٦).

ما معنى الفاعلين؟ أي نحن مخلوقون خلقنا الله، فلا يجوز أن يقال: والله من خلقه؟! وو[٧].. وهكذا؛ ولهذا جاء في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا، فليقل: آمنت بالله"[٨]،[٩] "قال أبو هريرة: فبينما أنا جالس إذ أتاني رجل فقال: هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟ قال: فوضعت أصبعي في أذني فقلت: الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد"[١٠]، فالله لم يلد ولم يولد، وليس متكونا من غيره[١١]، بل هو سبحانه وتعالى الحي الدائم الأبدي المتصف بكمال

---

(٧) وهو ما يسمى بالدور القبلي وهو ممتنع بالاتفاق، انظر: شرح الأصبهانية ط-اخرى (ص: ١٤٨).

(٨) صحيح مسلم (١/ ١١٩) ٢١٢ - (١٣٤).

(٩) انظر أوجه تقرير العلاج النبوي للوسوسة في هذا الباب في درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٩).

(١٠) فضائل القرآن لابن الضريس (ص: ١١٠) ٢٤٥.

(١١) "فليس له أصل وجد منه، ولا فرع يحصل عنه" النبوات لابن تيمية (١/ ٣٢٥) فلم يخرج من شيء، ولا يخرج منه شيء، ولا له مثل.النبوات لابن تيمية (١/ ٣٥٢)

الصفات، يخلق ولا يقبل أن يكون مخلوقا - ﷻ وتباركت أسماؤه - فهذا معنى (لم يلد ولم يولد)، فهو سبحانه الخالق وما سواه مخلوق.

فهذا خلاصة هذه المسألة، والأصل في مسائل العقيدة عند أهل السنة والجماعة: قال الله وقال رسوله، اقرأ التوحيد لابن خزيمة وكتاب التوحيد وكتاب الإيمان من صحيح البخاري وكتاب الإيمان من صحيح مسلم وغيره والواسطية لابن تيمية، تجدها كلها آيات وأحاديث تبين صفات الله تعالى.

لكن هذا الكلام هنا اضطررنا إليه اضطرارا، وهذا معنى ما ذكره بعضهم أن في أسلوب كتب العقيدة كثير من الجفاف(١٢)، يعني هذا المأخوذ من علم الكلام والفلسفة(١٣)، فالأصح أن تعرض العقيدة من خلال الآيات

---

(١٢) قال ذلك الشيخ مُحَمَّد سرور زين العابدين في كتابه منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله – دار الأرقم – برمنجهام (١/٨)، وأجاب في طبعات لاحقة للكتاب عن اعتراضات بعض أهل العلم على تلك العبارة، ثم آثر بعد ذلك أن يحذف تلك الجملة من الكتاب في الطبعات التالية انظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله - ط دار الجابية - لندن - الطبعة الخامسة (٩- ٢٨).

(١٣) قال الشيخ سفر الحوالي: "فأما جفاف علم الكلام وتعقيده فلا نشك فيه"منهج الأشاعرة في العقيدة - الكبير (ص: ١٣٨)، وانظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ١٨٠).

والأحاديث، لكن قد يضطر المتكلم في هذه المسائل أن يخوض في هذا الكلام حتى لا يقول أهل الأهواء أنك جاهل بأصل مذهبهم عاجز عن الرد عليهم فيضلون ويضلون، فإذا دخلت في هذا الكلام ببصيرة اتضح أنك عارف ما عندهم وعارف بطريقة إبطاله[١٤].

أَقْوَالُ أَهْلِ النَّظَرِ فِي إِمْكَانِيَّةِ دَوَامِ نَوْعِ الْحَوَادِثِ

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ "نَوْعَ الْحَوَادِثِ هَلْ يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَالْمَاضِي أَمْ لَا؟ أَوْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَقَطْ؟ أَوِ الْمَاضِي فَقَطْ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ مَعْرُوفَةٍ لِأَهْلِ النَّظَرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ:

أَضْعَفُهَا: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ، لَا يُمْكِنُ دَوَامُهَا لَا فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، كَقَوْلِ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَأَبِي الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ.

وَثَانِيهَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ دُونَ الْمَاضِي، كَقَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

---

(١٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ٢٢٩-٢٣٣) فقد بين الموضع الذي تستخدم فيه الألفاظ المحدثة والمجملة والموضع الذي يمتنع من استخدامها فيه.

وَالثَّالِثُ: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا يَقُولُهُ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ، وَهِيَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْكِبَارِ. وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمَاضِي دُونَ الْمُسْتَقْبَلِ"(١٥).

وَلَا شَكَّ "أَنَّ جُمْهُورَ الْعَالَمِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ يَقُولُونَ: إِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مَخْلُوقٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا قَوْلُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ"(١٦).

"وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالْفِطْرَةِ أَنَّ كَوْنَ الْمَفْعُولِ مُقَارِنًا لِفَاعِلِهِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مَعَهُ – مُمْتَنِعٌ مُحَالٌ"(١٧).

---

(١٥) ما بين علامتي التنصيص من منهاج السنة النبوية (١/ ١٧٦).

(١٦) ما بين علامتي التنصيص من منهاج السنة النبوية (١/ ٣٦٩) بتصرف يسير.

(١٧) ما بين علامتي التنصيص من منهاج السنة النبوية (١/ ٣٥٩).

لضرورة أن يسبق الفاعل للمفعول، الفلاسفة الذين يقولون بقدم العالم، يقال لهم: كيف يكون مفعولا لله ويكون قديما مساويا لله؟! أي عقل يقول هذا؟![١٨]

بل لا بد أن يتقدم الفاعل على المفعول، فالأب مثلا يتقدم على الابن، لا يعقل أن يكون وجودهم سواء، وصانع السيارة لا بد أن يكون متقدما على صناعتها، لا يعقل أن يكون وجودهما سواء، وهكذا المخلوقات لابد أن يكون الرب متقدما عليها عقلا، هذا في الدليل العقلي.

وَلَمَّا كَانَ تَسَلْسُلُ الْحَوَادِثِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الْآخِرَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، فَكَذَا تَسَلْسُلُ الْحَوَادِثِ فِي الْمَاضِي لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْأَوَّلَ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ

---

(١٨) "وهؤلاء الفلاسفة يتضمن قولهم في الحقيقة أنه لم يخلق ولم يعلم، فإن ما يثبتونه من الخلق والتعليم إنما يتضمن التعطيل، فإنه على قولهم لم يزل الفلك مقارناً له أزلاً وأبداً، فامتنع حينئذ أن يكون مفعولاً له، فإن الفاعل لا بد أن يتقدم على فعله" مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية – رشيد رضا (٥/ ١٨٦)، "وأرسطو وأتباعه لم يقولوا إن الفلك مفعول للرب ولا إنه معلول لعلة فاعلية أبدعت ذاته ؛ بل زعموا أنه قديم واجب بنفسه. مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز) (١٢/ ١٤٥)

شَيْءٌ. فَإِنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَكَلَّمُ إِذَا يَشَاءُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥، ١٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

"وَالْمُثْبَتُ إِنَّمَا هُوَ الْكَمَالُ الْمُمْكِنُ الْوُجُودِ، وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ النَّوْعُ دَائِمًا فَالْمُمْكِنُ وَالْأَكْمَلُ هُوَ التَّقَدُّمُ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ شَيْءٌ يُقَارِنُهُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَأَمَّا دَوَامُ الْفِعْلِ فَهُوَ أَيْضًا مِنَ الْكَمَالِ، فَإِنَّ الْفِعْلَ إِذَا كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ فَدَوَامُهُ دَوَامُ الْكَمَالِ"(١٩).

(١٩) ما بين علامتي التنصيص من منهاج السنة النبوية (١/ ٤٢٠).

وهذا واجب لأن صفات الكمال للرب لا يجوز بحال من الأحوال أن يفقدها في وقت من الأوقات ثم يكتسبها بعد ذلك، بل هو سبحانه وتعالى موصوف بالكمال ابتداء وانتهاء[٢٠].

(٢٠) أي: أزلا وأبدا.

"قَالُوا: وَالتَّسَلْسُلُ لَفْظٌ مُجْمَلٌ، لَمْ يَرِدْ بِنَفْيِهِ وَلَا إِثْبَاتِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، لِيَجِبَ مُرَاعَاةُ لَفْظِهِ، وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى وَاجِبٍ وَمُمْتَنِعٍ وَمُمْكِنٍ.

(وَكَالتَّسَلْسُلِ)[1] فِي الْمُؤَثِّرِينَ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ

أي التسلسل في الفاعلين فقوله "المؤثرين" أي الفاعلين.

وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُؤَثِّرُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ اسْتَفَادَ تَأْثِيرَهُ مِمَّنْ قَبْلَهُ لَا إِلَى غَايَةٍ.

وَالتَّسَلْسُلُ الْوَاجِبُ: مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ وَالشَّرْعُ، مِنْ دَوَامِ أَفْعَالِ الرَّبِّ تَعَالَى فِي الْأَبَدِ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا انْقَضَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ نَعِيمٌ أَحْدَثَ لَهُمْ نَعِيمًا آخَرَ لَا نَفَادَ لَهُ، وَكَذَلِكَ التَّسَلْسُلُ فِي أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ طَرَفِ الْأَزَلِ، وَأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ مَسْبُوقٌ بِفِعْلٍ آخَرَ.

وبهذا يتضح أن التسلسل الواجب نوعان: تسلسل في المفعولات في المستقبل فهذا مستمر إلى ما لا نهاية كنعيم الجنة، فنحن نعتقد أن نعيم الجنة لا انقضاء له؛ فالتسلسل فيه واجب.

---

(١) هكذا في شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٥٦) الذي هو أصل هذا النقل، وفي نسخة شرح الطحاوية - ط دار السلام (ص: ١٣٠)، ط الأوقاف السعودية (ص: ٨٥): (فالتسلسل).

وأما التسلسل فيما مضى؛ فإذا أرجعنا الأمر إلى فعل الرب قلنا التسلسل فيه واجب، وإذا أرجعنا الأمر إلى المفعولات قلنا التسلسل فيها ممكن(٢).

فَهَذَا وَاجِبٌ فِي كَلَامِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَلَمْ تَحْدُثْ لَهُ صِفَةُ الْكَلَامِ فِي وَقْتٍ، وَهَكَذَا أَفْعَالُهُ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِمِ حَيَاتِهِ، فَإِنَّ كُلَّ حَيٍّ فَعَّالٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ (بِالْفِعْلِ)(٣)، وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ

---

(٢) مقصود شيخنا أن ما أخبر الله بدوامه كنعيم أهل الجنة وعذاب الكفار في النار وجب التصديق بدوام تسلسل ذلك - وإن كان من الممكنات - إلى ما لا نهاية. وذلك لأن الأشياء إما واجبة الوجود، أو ممكنة الوجود، أو مستحيلة وممتنعة الوجود، فالأول وجود الله؛ لأنه لا يفتقر في وجوده إلى غيره، والثاني وجود المخلوقات لأنها مفتقرة في وجودها إلى غيرها، والثالث ما لا يمكن وجوده، كأن يكون للخالق خالق آخر خلقه. ولذلك قال الشارح هنا "وَأَمَّا التَّسَلْسُلُ الْمُمْكِنُ: فَالتَّسَلْسُلُ فِي مَفْعُولَاتِهِ مِنْ هَذَا الطَّرَفِ، كَمَا تَتَسَلْسَلُ فِي طَرَفِ الْأَبَدِ"، قال شيخ الإسلام: " وإذا كان الممكن نفسه إما واجباً بغيره، وإما ممتنعاً لغيره، فما كان يمكن دوام وجوده كان مع وجوده واجب الدوام بغيره، فيمتنع أن يكون حينئذ ممكن العدم والحال هذه، مع كونه واجب الدوام بغيره". درء تعارض العقل والنقل (٩/ ١٩٤).

(٣) هكذا في شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٥٦) الذي هو أصل هذا النقل، وفي نسخة شرح الطحاوية - ط دار السلام (ص: ١٣٠)، شرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (ص: ٨٦)(: الفعل).

السَّلَفِ: الْحَيُّ الْفَعَّالُ، وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ: كُلُّ حَيٍّ فَعَّالٌ[٤]، وَلَمْ يَكُنْ رَبُّنَا تَعَالَى قَطُّ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مُعَطَّلًا عَنْ كَمَالِهِ، مِنَ الْكَلَامِ وَالْإِرَادَةِ وَالْفِعْلِ.

وَأَمَّا التَّسَلْسُلُ الْمُمْكِنُ: فَالتَّسَلْسُلُ فِي مَفْعُولَاتِهِ مِنْ هَذَا الطَّرَفِ، كَمَا تَتَسَلْسَلُ فِي طَرَفِ الْأَبَدِ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَزَلْ حَيًّا قَادِرًا مُرِيدًا مُتَكَلِّمًا، وَذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ - فَالْفِعْلُ مُمْكِنٌ لَهُ بِوُجُوبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُ، وَأَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِنْ أَنْ لَا يَفْعَلَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ مَعَهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَقَدُّمًا لَا أَوَّلَ لَهُ، فَلِكُلِّ مَخْلُوقٍ أَوَّلُ، وَالْخَالِقُ سُبْحَانَهُ لَا أَوَّلَ لَهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْخَالِقُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ.

قَالُوا: وَكُلُّ قَوْلٍ سِوَى هَذَا فَصَرِيحُ الْعَقْلِ يَرُدُّهُ وَيَقْضِي بِبُطْلَانِهِ

أي سواء القول بامتناع (دوام) الحوادث في الماضي والمستقبل – الذي هو قول الجهم - وهو أسخف هذه الأقوال كلها؛ لأنه يستلزم أن يأتي على

---

(٤) "قال أبو عبد الله: «ولقد بين نعيم بن حماد أن كلام الرب ليس بخلق، وأن العرب لا تعرف الحي من الميت إلا بالفعل، فمن كان له فعل فهو حي ومن لم يكن له فعل فهو ميت ..." خلق أفعال العباد للبخاري (ص: ٨٥).

أهل الجنة وأهل النار زمان يتوقفون عن الحركة وتنتهي الحوادث، فلهذا تساءل ابن القيم رحمه الله في نونيته[٥]:

ما حال من قد كان يغشى أهله عنـد انقضـــاء تحرك الحيوان
وكذاك ما حال الذي رفعت يدا هــــ أكلة من صـفحة وخوان
فتناهت الحركات قبل وصـــولها للفم عنـد تفتح الأســنــان
وكذاك ما حال الذي امتدت يد منـه إلى قنـو مـن القـنـوان
فتناهت الحركات قبل الأخذ هل يبقى كذلك ســائر الأزمان
تبـا لهـاتيـك العقول فـإنها والله قد مســخت على الأبدان
تبا لمن أضــحى يقدمها على ال آثار والأخـبــار والــقــرآن

فهذا مذهب الجهم بن صفوان وأبي الهذيل العلاف[٦].

وَكُلُّ مَنِ اعْتَرَفَ بِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ لَزِمَهُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُمَا: إِمَّا أَنْ يَقُولَ بِأَنَّ الْفِعْلَ لَمْ يَزَلْ مُمْكِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَقُولَ لَمْ يَزَلْ وَاقِعًا، وَإِلَّا تَنَاقَضَ تَنَاقُضًا بَيِّنًا، حَيْثُ زَعَمَ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى

---

(٥) هذان الضالان "الجهم بن صفوان إمام الجهمية وأبو الهذيل العلاف إمام المعتزلة" هما صاحبا هذا القول الساقط. الصفدية (٢/ ٣٠) درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٨/ ٣٤٥).

(٦) الكافية الشافية (ص: ٩).

لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ، وَالْفِعْلُ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، لَوْ أَرَادَهُ لَمْ يُمْكِنْ وُجُودُهُ، بَلْ فَرْضُ إِرَادَتِهِ عِنْدَهُ مُحَالٌ وَهُوَ مَقْدُورٌ لَهُ. وَهَذَا قَوْلٌ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا"(٧).

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ، أَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مُحْدَثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ. أَمَّا كَوْنُ الرَّبِّ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُعَطَّلًا عَنِ الْفِعْلِ ثُمَّ فَعَلَ فَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ وَلَا فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ، بَلْ كِلَاهُمَا يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِهِ.

يقولون أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة: أن الفعل كان ممتنعا من الله عز وجل، - من أجل قضية تسلسل الحوادث(٨) -، قالوا ثم صار ممكنا، ثم أراد الله أن يوجده في زمان معين، فهذا يشكل عليهم؛ لأنهم لا يجوزون قيام الحوادث بذات الله، فإذا كان الرب تبارك وتعالى لا يجوز قيام الحوادث

---

(٧) ما بين علامتي التنصيص من شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٥٦).

(٨) الصفدية (٢/ ١٣٨) درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٩/ ١٨٥) وقد لخص الرازي حججهم على ذلك وأبطلها كما ذكر ذلك شيخ الاسلام في: درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٩/ ١٩٦).

به، فكيف اختير لهذا المخلوق زمان ومكان؛ فيخرج من العدم إلى الوجود، فالزمان متساو قبل وجوده وبعده، فلا بد أن يعتقد أن الله اختار له الزمان والمكان، وهم يمنعون هذا ويسمونه حلول الحوادث.

أما نحن فلا نسلم بما يقررونه في مسألة حلول الحوادث، بل نقول: الله موصوف بصفات الكمال القائمة بذات الله من الصفات الاختيارية والصفات اللازمة، فهو سبحانه وتعالى يتكلم متى شاء ويخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء، فنحن نؤمن به لأن الله وصف نفسه بذلك، ولزم المتكلمين - لما نفوا هذا — أن المخلوقات وجدت بلا مرجح، وهذا يجعل الفلاسفة القائلين بقدم العالم يستطيلون على المتكلمين، فيقولون: ما دام أنه يجوز عندكم وجود المخلوق بلا مرجح في وجوده وزمانه ونحو ذلك فلا مانع أن يكون العالم موجودا بلا موجد[٩].

---

(٩) ومع ذلك " فهؤلاء الفلاسفة أنكروا على المتكلمين نفاة الأفعال القائمة به أنهم أثبتوا حدوث الحوادث بدون سبب حادث مع كون الفاعل موصوفا بصفات الكمال وهم أثبتوا حدوث الحوادث كلها بدون سبب حادث ولا ذات موصوفة بصفات الكمال بل حقيقة قولهم أن الحوادث تحدث بدون محدث فاعل إذ كانوا مصرحين بأن العلة التامة الأزلية يجب أن يقارنها معلولها فلا يبقى للحوادث فاعل أصلا لا هي ولا غيرها فعلم أن قولهم أعظم تناقضا من قول المعتزلة ونحوهم" درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ٣٧١).

وَقَدْ أَوْرَدَ "أَبُو الْمَعَالِي فِي إِرْشَادِهِ[١٠] وَغَيْرُهُ[١١] مِنَ النُّظَّارِ عَلَى التَّسَلْسُلِ فِي الْمَاضِي، فَقَالُوا: أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: لَا أُعْطِيكَ دِرْهَمًا إِلَّا أُعْطِيكَ بَعْدَهُ دِرْهَمًا كَانَ هَذَا مُمْكِنًا

يقولون هذا ممكن لأنه في المستقبل (لا أعطيك درهما) يعني الآن (إلا أعطيك بعده درهما) أي بعد ساعة أو ساعتين أو يوم أو يومين أو نحو ذلك، إذا هذا ممكن لأنه تسلسل في المستقبل، لكن الإشكالية عليهم هي في الماضي.

---

(١٠) الإرشاد الى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد (ط السعادة) (ص: ٤٧) الشامل في أصول الدين له أيضا (ط المعارف) (ص: ٢٢٠).

(١١) المغني الغنية في أصول الدين للمتولي (ت برنان) (ص: ٨) غاية المرام في علم الكلام (ص: ١٣).

وَلَوْ قُلْتَ: لَا أُعْطِيكَ دِرْهَمًا حَتَّى أُعْطِيَكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا، كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا

هذا صحيح[١٢] لكن هذا التركيب غلط وسيأتي رد المؤلف عليه[١٣].

"وَهَذَا التَّمْثِيلُ وَالْمُوَازَنَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ، بَلِ الْمُوَازَنَةُ الصَّحِيحَةُ أَنْ تَقُولَ: مَا أَعْطَيْتُكَ دِرْهَمًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا فَتَجْعَلَ مَاضِيًا قَبْلَ مَاضٍ، كَمَا جَعَلْتَ هُنَاكَ مُسْتَقْبَلًا بَعْدَ مُسْتَقْبَلٍ. وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى أُعْطِيَكَ قَبْلَهُ، فَهُوَ نَفْيٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ حَتَّى يَحْصُلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَيَكُونُ قَبْلَهُ. فَقَدْ نَفَى الْمُسْتَقْبَلَ حَتَّى يُوجَدَ الْمُسْتَقْبَلُ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ. أما نفي الْمَاضِيَ حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهُ مَاضٍ، فَإِنَّ هَذَا مُمْكِنٌ. (وَالْعَطَاءُ الْمُسْتَقْبَلُ ابْتِدَاؤُهُ مِنَ الْمُعْطِي. وَالْمُسْتَقْبَلُ الَّذِي لَهُ ابْتِدَاءٌ

---

(١٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٥٨).

(١٣) أي في تتمة ما نقله عن شيخ الإسلام.

وَانْتِهَاءٌ(١٤) **لَا يَكُونُ قَبْلَهُ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، فَإِنَّ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فِيمَا يَتَنَاهَى مُمْتَنِعٌ**"(١٥).

فهم عبروا بالفعل المضارع، ولو عبروا بالفعل الماضي لم يكن هناك إشكال في التمثيل، وذلك أنه يستحيل أن تجعل الفعل المضارع للماضي، ولكن لو عبرت بفعل ماض مع فعل ماض، وفعل مستقبل مع فعل مستقبل فلن يكون هناك أي إشكال.

---

(١٤) اختلفت نسخ الطلاب في هذه الجملة ثم أقر القارء على هذا النحو: (والمعطى الذي له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله ما لا نهاية له فإن ما لا نهاية له في المتناهي ممتنع) وعبارة الأصل كما هو مثبت انظر: منهاج السنة النبوية (١/ ٤٣٦)، وهي كذلك في شرح الطحاوية - ط دار السلام (ص: ١٣١)، ت الأرناؤوط (١/ ١٠٩)، ط الأوقاف السعودية (ص: ٨٧).

(١٥) ما بين علامتي التنصيص من منهاج السنة النبوية (١/ ٤٣٦).

قَوْلُهُ: (لَيْسَ مُنْذُ خَلَقَ الْخَلْقَ اسْتَفَادَ اسْمَ الْخَالِقِ وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسْمَ الْبَارِي)

صِفَتَا الْخَالِقِ وَالْبَارِئِ – تَسَلْسُلُ الْحَوَادِثِ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ

ش: ظَاهِرُ كَلَامِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ يَمْنَعُ تَسَلْسُلَ الْحَوَادِثِ فِي الْمَاضِي، وَيَأْتِي فِي كَلَامِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْنَعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ (وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ)

لأنه قال (ليس بعد خلق الخلق)[١] فجعل لخلق الخلق بعدية فيفيد أنه قبل ذلك لم يكن هناك خلق، وهذا هو الزمان الذي يتحدثون عنه ما لا نهاية له ليس الفعل فيه ممكنا[٢]، ولو قال (ليس بخلق الخلق) بدل (بعد) أو(منذ)

---

(١) في النسخة التي قرئت على الشيخ (ليس بعد) و(ليس منذ).

(٢) "فما من حال يقدرها العقل إلا والفعل فيها ممكن وهو قادر وإذا قدر قبل ذلك شيئا شاءه الله فالأمر كذلك فلم يزل قادرا والفعل ممكنا؛ وليس لقدرته وتمكنه من الفعل أول فلم يزل قادرا يمكنه أن يفعل فلم يكن الفعل ممتنعا عليه قط. وأيضا فإنهم يزعمون أنه يمتنع في الأزل والأزل ليس شيئا محدودا يقف عنده العقل بل ما من غاية ينتهي إليها تقدير الفعل إلا والأزل قبل ذلك بلا غاية محدودة حتى لو فرض وجود مدائن أضعاف مدائن الأرض في كل مدينة من الخردل ما يملؤها؛ وقدر إنه كلما مضت ألف ألف سنة فنيت خردلة فنى الخردل كله والأزل لم ينته ولو قدر أضعاف ذلك أضعافا لا ينتهي. فما من وقت يقدر

إلا والأزل قبل ذلك. وما من وقت صدر فيه الفعل إلا وقد كان قبل ذلك ممكنا. وإذا كان ممكنا فما الموجب لتخصيص حال الفعل بالخلق دون ما قبل ذلك فيما لا يتناهى؟ . وأيضا فالأزل معناه: عدم الأولية ليس الأزل شيئا محدودا فقولنا: لم يزل قادرا بمنزلة قولنا: هو قادر دائما وكونه قادرا وصف دائم لا ابتداء له فكذلك إذا قيل: لم يزل متكلما إذا شاء ولم يزل يفعل ما شاء يقتضي دوام كونه متكلما وفاعلا بمشيئته وقدرته وإذا ظن الظان أن هذا يقتضي قدم شيء معه كان من فساد تصوره فإنه إذا كان خالق كل شيء فكل ما سواه مخلوق مسبوق بالعدم فليس معه شيء قديم بقدمه. وإذا قيل: لم يزل يخلق كان معناه لم يزل يخلق مخلوقا بعد مخلوق كما لا يزال في الأبد يخلق مخلوقا بعد مخلوق ننفي ما ننفيه من الحوادث والحركات شيئا بعد شيء. وليس في ذلك إلا وصفه بدوام الفعل لا بأن معه مفعولا من المفعولات بعينه. وإن قدر أن نوعها لم يزل معه فهذه المعية لم ينفها شرع ولا عقل بل هي من كماله قال تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ والخلق لا يزالون معه وليس في كونهم لا يزالون معه في المستقبل ما ينافي كماله وبين الأزل في المستقبل مع أنه في الماضي حدث بعد أن لم يكن إذ كان كل مخلوق فله ابتداء ولا نجزم أن يكون له انتهاء. وهذا فرق في أعيان المخلوقات وهو فرق صحيح لكن يشتبه على كثير من الناس النوع بالعين كما اشتبه ذلك على كثير من الناس في الكلام فلم يفرقوا بين كون كلامه قديما بمعنى إنه لم يزل متكلما إذا شاء وبين كون الكلام المعين قديما. وكذلك لم يفرقوا بين كون الفعل المعين قديما وبين كون نوع الفعل المعين قديما كالفلك محدث مخلوق مسبوق بالعدم وكذلك كل ما سواه وهذا الذي دل عليه

لم يكن فيه إشكال. فهو سبحانه موصوف بالخالق قبل أن يخلق المخلوقات، لكنه موصوف بالقوة وبعد أن خلق الخلق موصوف بالفعل(٣).

وَهَذَا مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَلَا شَكَّ فِي فَسَادِ قَوْلِ مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجَهْمُ وَأَتْبَاعُهُ، وَقَالَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، لِمَا يَأْتِي مِنَ الْأَدِلَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ بِجَوَازِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا، مِنَ الْقَائِلِينَ بِحَوَادِثَ لَا آخِرَ لَهَا - فَأَظْهَرُ فِي الصِّحَّةِ مِنْ قَوْلِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ حَيًّا، وَالْفِعْلُ مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ، فَلَمْ يَزَلْ فَاعِلًا لِمَا يُرِيدُ، كَمَا وَصَفَ بِذَلِكَ نَفْسَهُ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥ - ١٦].

الكتاب والسنة والآثار وهو الذي تدل عليه المعقولات الصريحة الخالصة من الشبه كما قد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع وبينا مطابقة العقل الصريح للنقل الصحيح" مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٣٨-٢٤٠).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٢٣)، منهاج السنة النبوية (١/ ٣٨٣).

الْمَعَانِي الْمُسْتَنْبَطَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى " فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ "

"وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، لِأَنَّهُ سَاقَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَادِمًا لِهَذَا الْكَمَالِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] وَلما كَانَ مِنْ أَوْصَافِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ لَمْ يَكُنْ حَادِثًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ.

فإنه هنا يبطل استحقاق الألوهية لمن لا يخلق، فإذا قدرنا أن الرب كان في زمن ما لا يخلق ويمتنع الخلق منه؛ فإنه لا يكون مستحقا للألوهية، وهذا خطير جدا، بل هو سبحانه لم يزل مستحقا للألوهية لأنه لم يزل خالقا ولم يزل فاعلا.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَعَلَهُ، فَإِنَّ مَا مَوْصُولَةٌ عَامَّةٌ، أَيْ: يَفْعَلُ كُلَّ مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، وَهَذَا فِي إِرَادَتِهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِفِعْلِهِ. وَأَمَّا إِرَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِفِعْلِ الْعَبْدِ فَتِلْكَ لَهَا شَأْنٌ آخَرُ

فهنا إرادتان:

- إن يريد من نفسه أن يفعل.

- وأن يريد من العبد أن يفعل.

فلا بد من التفريق بين هاتين الإرادتين، فإرادته من نفسه أن يفعل: سيفعل ويتحقق مراده، وإرادته من عبده أن يفعل فقد يقع الفعل من العبد وقد لا يقع، هذا في الإرادة الشرعية، أما الإرادة الكونية فإذا أراد من عبده أن يفعل فإنه يفعل، فالإرادة الشرعية هي التي لو أراد من أحد أن يفعل فقد يفعل وقد لا يفعل، كما لو أراد من الناس الإسلام والإيمان فمنهم من يسلم ويؤمن ومنهم من لا يسلم ولا يؤمن، لكن لو أراد ذلك كونا لزم أن يكون الناس كلهم مؤمنين مسلمين.

فَإِنْ أَرَادَ فِعْلَ الْعَبْدِ وَلَمْ يُرِدْ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَيْهِ وَيَجْعَلَهُ فَاعِلًا لَمْ يُوجَدِ الْفِعْلُ وَإِنْ أَرَادَهُ حَتَّى يُرِيدَ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا.

فإن أراد فعل العبد أي أراد منه الصلاة والصيام والتوحيد أي شرعا، أما كونا فلا بد أن يقع.

وَهَذِهِ هِيَ النُّكْتَةُ الَّتِي خَفِيَتْ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ، وَخَبَطُوا فِي مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، لِغَفْلَتِهِمْ عَنْهَا، وَفَرْقٌ بَيْنَ إِرَادَتِهِ أَنْ يَفْعَلَ الْعَبْدُ وَإِرَادَةِ أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا.

قوله (**وَإِرَادَةِ أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا**) هذه إرادة كونية.

وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

لأن صاحب المتن لم ينظم كتابه -كما نبهنا سابقا – وأحسن ترتيب هو أن يكون على ترتيب حديث جبريل، (أن تؤمن بالله) ويأتي بكل ما يتعلق بذلك من مسائل كالربوبية والإلهية والأسماء والصفات، وما يجوز على الرب وما لا يجوز، وما يجب له ونحو ذلك، ثم الكلام على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ونحو ذلك.

الرَّابِعُ: أَنَّ فِعْلَهُ وَإِرَادَتَهُ مُتَلَازِمَانِ، فَمَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَهُ فَعَلَهُ، وَمَا فَعَلَهُ فَقَدْ أَرَادَهُ. بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ مَا لَا يَفْعَلُ وَقَدْ يَفْعَلُ مَا لَا يُرِيدُ. فَمَا ثَمَّ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ.

يريد أن يتزوج مثلا ولكن ليس عنده قدرة على ذلك فلا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد كما لو اضطر أو غصبه أحد على ما لا يريد أو يمرض ويخسر ونحو ذلك.

الْخَامِسُ: إِثْبَاتُ إِرَادَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِحَسَبِ الْأَفْعَالِ، وَأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ لَهُ إِرَادَةٌ تَخُصُّهُ، هَذَا هُوَ الْمَعْقُولُ فِي الْفِطَرِ، فَشَأْنُهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ عَلَى الدَّوَامِ وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

فهناك إرادة عامة وإرادة خاصة(٤)، فالإرادة العامة متعلقة بما علمه سبحانه أنه سيكون في هذا العالم، في السماء والأرض والإنس والجن والملائكة، يعلمها في الأزل ويريدها إرادة عامة، وهناك إرادة خاصة، وهي متعلقة بكل مخلوق على انفراده بحيث يوجده من العدم، فمثلا الله أراد في الأزل أن يكون لنا نسلا، فهذه إرادة عامه، فإذا جاء الأجل المسمى لوجود ذلك النسل أوجده بإرادة خاصة.

فالقدر المكتوب يشبه ما يسمى اليوم بالخطط فهناك خطة عامة وخطة مفصلة وبعيدة المدى وقصيرة المدى، وهذا نظام وتنظيم بديع حيث قد كتب كل ما يتعلق بالخلق قبل وجودهم وإلى يوم القيامة وما سيكون

---

(٤) جامع المسائل لابن تيمية – عزير شمس (٦/ ٥١-٥٢).

عليه أهل الجنة وأهل النار ولذلك جاء في الحديث "إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة"(٥)، والعجيب أن يأتي اليوم من ينكر التنظيم مطلقا ويبدعه!.

السَّادِسُ: أَنَّ كُلَّ مَا صَحَّ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ إِرَادَتُهُ جَازَ فِعْلُهُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَنْ يَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَأَنْ يُرِيَ عِبَادَهُ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَتَجَلَّى لَهُمْ كَيْفَ شَاءَ، وَيُخَاطِبَهُمْ، وَيَضْحَكَ إِلَيْهِمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُرِيدُ سُبْحَانَهُ – لَمْ يَمْتَنِعْ عَلَيْهِ فِعْلُهُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ. وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُ صِحَّةُ ذَلِكَ عَلَى إِخْبَارِ الصَّادِقِ بِهِ

فإذا ثبت شيء من ذلك وأمثاله بالنص أنه سيفعل (وجب قبوله).

أما الاعتراضات الباطلة التي يسلكها أهل البدع فلا وجه لها، من ذلك: أن بعض الناس الذين ينكرون الرؤية يعيبون علينا إثبات الرؤية فيقولون: اليهود هم الذين يؤمنون بالرؤية كما في قوله تعالى﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، فيقال أخذتهم الصاعقة لأنهم جعلوا الرؤية شرطا في الإيمان﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ

---

(٥) مسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٣٧٨) ح(٢٢٧٠٥) وصححه محققه الأرنؤوط.

لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ﴾ [البقرة: ٥٥]، فهذا مثل الذين قال الله عنهم﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، أما ما أخبر به القرآن مثل قوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فهذا أمر أخبر الله به فهو ثابت بالدليل والحجة.

وكذلك عندما نقول أن العصاة سيخرجون من النار يقولون هذه عقيدة اليهود أيضا؛ لأنهم قالوا﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] فنقول ماذا قال الله لهم؟﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠] فالآية تثبت أنه إذا وجد العهد بذلك فسيتحقق، وهذا يدل على الجواز وأنه لا يمتنع خروج العصاة من النار.

فنقول هنا هذه العقائد قد أخبرت بها الآيات والأحاديث، فالحجة قائمة بها ومعنا بها عهد من الله، أما اليهود فإنما قالوا ذلك تخرصا وكذبا.

فَإِذَا أَخْبَرَ وَجَبَ التَّصْدِيقُ، وَكَذَلِكَ مَحْوُ مَا يَشَاءُ، وَإِثْبَاتُ مَا يَشَاءُ"[٦]، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(٦) ما بين علامتي التنصيص من التبيان في أقسام القرآن (ص: ٩٥-٩٧).

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْحَوَادِثَ لَهَا أَوَّلٌ، يَلْزَمُ مِنْهُ التَّعْطِيلُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ غَيْرَ فَاعِلٍ ثُمَّ صَارَ فَاعِلًا. وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ قِدَمُ الْعَالَمِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مُحْدَثٌ مُمْكِنُ الْوُجُودِ، مَوْجُودٌ بِإِيجَادِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْعَدَمُ، وَالْفَقْرُ وَالِاحْتِيَاجُ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَازِمٌ لِكُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى وَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ، غَنِيٌّ لِذَاتِهِ، وَالْغِنَى وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَازِمٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي أَوَّلِ هَذَا الْعَالَمِ

وَلِلنَّاسِ قَوْلَانِ فِي هَذَا الْعَالَمِ: هَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَادَّةٍ أَمْ لَا؟(٧) وَاخْتَلَفُوا فِي أَوَّلِ هَذَا الْعَالَمِ مَا هُوَ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]

استدلال المؤلف بهذه الآية الشاهد منه هو قوله﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾نحن نعلم أن حساب الأيام ناتج عن تعاقب الليل والنهار في السماء والأرض، فلا

---

(٧) "فالذي جاء به القرآن والتوراة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع أئمة أهل الكتاب أن هذا العالم خلقه الله وأحدثه من مادة كانت مخلوقة قبله كما أخبر في القرآن أنه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي بخار ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] وقد كان قبل ذلك مخلوق غيره كالعرش والماء كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] وخلق ذلك في مدة غير مقدار حركة الشمس والقمر كما أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، والشمس والقمر هما من السموات والأرض وحركتهما بعد خلقهما والزمان المقدر بحركتهما وهو الليل والنهار التابعان لحركتهما إنما حدث بعد خلقهما وقد أخبر الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام فتلك الأيام مدة وزمان مقدر بحركة أخرى غير حركة الشمس والقمر". درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ١٢٣).

شك أنه كان قبل تلك الأيام أيام أخرى وفيها مخلوقات يحصل من خلال تعاقبها معرفة حساب الأيام[٨].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ[٩] وَغَيْرُهُ[١٠] عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ أَهْلُ الْيَمَنِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ

وفي هذا أن مسائل العقيدة تسمى فقها.

وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ

أي عن أول مخلوقات هذا العالم.

---

(٨) درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ١٢٣).

(٩) صحيح البخاري (٩/ ١٢٤) ح(٧٤١٨).

(١٠) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٧٣٢) ح(٣٩٥١).

فَقَالَ: " كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ "، وَفِي رِوَايَةٍ: "وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ "[(11)]، وَفِي رِوَايَةٍ " غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ

---

(١١) قال الشيخ الألباني: "ورواية "معه" لم أجدها عند البخاري، وقد أخرج الحديث في موضعين من "صحيحه": "بدءِ الخلق" و"التوحيد" بالروايتين الأخيرتين: "قبله" و"غيره"، وبالأخرى منهما أخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات" "٦ و٢٧٠"، ورواه أحمد "٤/ ٤٣١" بالرواية الأولى منهما، لكن بلفظ "كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء"، وعزاه الذهبي في "مختصر العلو" "٩٨/ ٤٠" للبخاري وقال "حديث صحيح"! انظر المقدمة "ص٢٧"، وكلام الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث يشعر بأن هذه الرواية معه" لم يقف عليها، فقد قال "٦/ ٢٠٦": "تنبيه": وقع في بعض الكتب في هذا الحديث: "كان الله ولا شيءَ معه، وهو الآن على ما عليه كان" وهي زيادة ليست في شيءٍ من كتاب الحديث، نبه على ذلك العلامة تقي الدين ابن تيمية، وهو مسلم في قوله: "وهو الآن إلى آخره"، وأما لفظ: "ولا شيء معه"، فرواية الباب بلفظ: "ولا شيء غيره بمعناها". قلت: فلو كان عند الحافظ علم بهذه الرواية لذكرها، واستغنى بذلك عن الاحتجاج عليها بمعنى الرواية التي ذكرها، كما هو ظاهر، والله أعلم." شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: ١٣٣).

أقول: وقد عزا شيخ الإسلام هذه الرواية والروايتين الأخريين إلى صحيح البخاري كما في الصفدية (١/ ١٥) فلعله اطلع على بعض نسخ البخاري وفيها ذلك ولم يتيسر لابن حجر وغيره الاطلاع على تلك النسخة. والله أعلم.

شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ"(١٢)، وَفِي لَفْظِ: " ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»(١٣). "فَقَوْلُهُ: " كَتَبَ فِي الذِّكْرِ "، يَعْنِي اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] سَمَّى مَا يُكْتَبُ فِي الذِّكْرِ ذِكْرًا، كَمَا يُسَمَّى مَا يُكْتَبُ فِي الْكِتَابِ كِتَابًا.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَقْصُودَ إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللَّهَ كَانَ مَوْجُودًا وَحْدَهُ وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ دَائِمًا، ثُمَّ ابْتَدَأَ إِحْدَاثَ جَمِيعِ الْحَوَادِثِ، فَجِنْسُهَا وَأَعْيَانُهَا مَسْبُوقَةٌ بِالْعَدَمِ، وَأَنَّ جِنْسَ الزَّمَانِ حَادِثٌ لَا فِي زَمَانٍ، وَأَنَّ اللَّهَ صَارَ فَاعِلًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنَ الْأَزَلِ إِلَى حِينِ ابْتِدَاءِ الْفِعْلِ ولا كَانَ الْفِعْلُ مُمْكِنًا.

هذا قول المتكلمين من معتزلة وأشاعرة(١٤).

---

(١٢) صحيح البخاري (٤/ ١٠٥) ح(٣١٩١).

(١٣) صحيح البخاري (٩/ ١٢٤) ح(٧٤١٨).

(١٤) سبقت الإشارة إلى ذلك وأحلنا على الصفدية (٢/ ١٣٨) درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٩/ ١٨٥)، درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٩/ ١٩٦).

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: الْمُرَادُ إِخْبَارُهُ عَنْ مَبْدَأِ خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَوْجُودِ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، كَمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١٥). فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ تَقْدِيرَ هَذَا الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ كَانَ قَبْلَ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَأَنَّ عَرْشَ الرَّبِّ تَعَالَى كَانَ حِينَئِذٍ عَلَى الْمَاءِ"(١٦).

(١٥) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٤) ح(١٦ - (٢٦٥٣)).

(١٦) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (٥/ ١٧٣-١٧٤).